

ثنائية المرأة والطبيعة في مقالات مصطفى صادق الرافعي

The Duality of Woman and Nature in the Essays

of Mustafa Sadiq Al-Rafi'i"

محمد زرمان*

جامعة باتنة 1 mohamed.zermane@univ-batna.dz

2026/04/05	تاريخ القبول	2025/05/03	تاريخ الإرسال
------------	--------------	------------	---------------

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل ثيمتين مهمتين شغلت أديب العربية في العصر الحديث مصطفى صادق الرافعي وهي ثيمتي المرأة والطبيعة، والثنتين تتقاطعان معا في فلسفة الحب والجمال، فالجمال سر الحياة ورونقها، والمرأة والطبيعة بلا جمال لا معنى لهما، وقد حلل الرافعي هذه الثنائية المثيرة من عدة جوانب كان أبرزها فلسفة الحب والجمال كقيمة حضارية راقية راسخة في حياة الإنسان منذ أقدم العصور، فالمرأة كانت مصدرا من مصادر الإلهام الأساسية في أدبه، كما كان الإعجاب المنقطع النظر بسحر الطبيعة مصدرا لإلهام أيضا في كل إبداعاته، وكلاهما أكسبه التميز والفرادة في الكتابة الأدبية. ويحاول هذا البحث الإجابة عن سؤال مركزي أساس وهو: كيف كانت ثنائية المرأة والطبيعة مصدرا مهما من مصادر الإبداع في أدب الرافعي؟ وكيف انعكس ذلك بشكل كبير في مختلف كتاباته النثرية؟

الكلمات المفتاحية: المرأة؛ الطبيعة؛ فلسفة الحب والجمال؛ الرافعي؛ الأدب العربي الحديث.

Abstract

This study examines the dual themes of woman and nature in the writings of Mustafa Sadiq Al-Rafi'i, highlighting their intersection through the philosophy of love and beauty. It argues that both woman and nature constitute central sources of inspiration in Al-Rafi'i's literary vision, reflecting beauty as a fundamental cultural and aesthetic value. The study explores how these themes are expressed across his prose works, particularly his essays, and investigates the ways in which they contributed to the originality and distinctiveness of his literary style.

Keywords: Mustafa Sadiq Al-Rafi'i; woman; nature; love; beauty; modern Arabic literature.

1. مقدمة

لقد كان لكل من المرأة والطبيعة في نفس الرافعي مكانة كبيرة، ظلت تحتل جزءاً مهماً من أدبه حتى آخر أيام حياته. وكما كان يطمح إلى أن يصبح شاعر الحسن (سعيد، 1968، صفحة 44) في صدر حياته الأدبية، فقد أراد أن يكون فيلسوف الجمال والحب في كتبه النثرية التي بدأها بـ "حديث القمر"، ثم "رسائل الأحزان"، ثم "السحاب الأحمر"، وأخيراً "أوراق الورد". وأفرغ فيها كلها خلاصة تجاربه مع المرأة، وفيض عواطفه نحو الطبيعة.

ولئن كان الرافعي قد بلغ الغاية في معاني الحب والجمال في كتبه هذه، إلا أن قلبه ظل يخفق لدواعي الحب ويهتز لسحر المرأة وبدائع الطبيعة. فحفلت مقالاته التي كتبها في أواخر عمره بكل ذلك، ومن خلالها استطعنا تحديد ملامح صورة الرافعي الأديب الذي هام بالمرأة والطبيعة، ووجد راحة عواطفه في الحب السامي.

وانطلاقاً مما سبق، سنعرض في هذا البحث لأدب الرافعي المتمثل في جمال المرأة والحب، وسحر الطبيعة، ولا شك أن لهذه الموضوعات قيمتها الأدبية وأثرها الواضح في زمن الرافعي، كما كانت لها أبعادها الخطيرة نظراً للصراع الحاد الذي كان ناشباً بين دعاة الأصالة وأصحاب الدعوات التغريبية. فقد كثرت الأحاديث حول هذه القضايا الأساسية، وخاصة منها المرأة والحب، وكان للمجددين المتفتحين على الثقافة الغربية مواقف بإزاءها لا تعجب الرافعي لأنها تجنح إلى الانحلال والهبوط.

أولاً: الرافعي وفلسفة الجمال

تفتحت موهبة الرافعي الأدبية أول ما تفتحت على قول الشعر. ويقال إن ملهمته في أول أشعاره كانت فتاة حسناء (سعيد، 1968، صفحة 97) شغل بها وهو في ريعان الشباب. فتغنى في قصائده الغزلية بالحب والجمال، وكانت نفسه تتطلع إلى جميع أنواع الجمال، كما كانت النساء الجميلات محط أنظاره كذلك. وكان يستلهم من حسنهن المعاني الشعرية التي تملأ نفسه فيكتبها في شكل قصيدة أو رسالة نثرية رقيقة. ومثلما أخذ الرافعي بالجمال البشري ممثلاً في المرأة فهام به، كذلك فعلت به الطبيعة مثل

ذلك، فكان كل مشهد فيها يشده إليه فيستكنه عظام خلق الله، ويستغرق في دقائقه، ويرى فيه إعجازا وجمالا خارقين.

وحيث أنه لم يكن من أولئك الذين يقوون على كبت مشاعرهم ودفن أحاسيسهم حفاظا على شعور القراء الذين كانوا يرون فيه: "شيخا معتجر العمامة...مسترسل اللحية مما قرأوا له من بحوث في الدين وآراء في التصوف، وحرص على تراث السلف..." (سعيد، 1968، صفحة 93) فقد أعلن عن رأيه في هذه القضايا، وخصص لها جانبا كبيرا من أدبه - كما أسلفنا- مندفعاً إلى ذلك بفيض مشاعره وتوثبات روحه التي تعشق الجمال فيها جميعا.

ومن خلال كل ذلك، اتضح موقفه من هذه الأمور حيث وضعها في الموضوع الذي يراه لائقا بها، معارضا - في جزء كبير منها- مواقف أكثر معاصريه، في وقت طفت فيه حرية المرأة، وشاعت أحاديث الغزل بين الشباب، وبدأت تؤتي ثمارها المرة بالنسبة لواقع المجتمع وعلاقات أفراد.

لذلك يعبر أحمد بسام ساعي عن إعجابه بهذا الموقف الفريد الذي وقفه الرافعي بين المحافظين، أولئك الذين يتخرجون من الحديث في هذه الموضوعات، وبخاصة من كان منهم على قسط وافر من الثقافة الإسلامية، وبين المتحررين الذين أطلقوا الحبل على غاربه، فزاغت عندهم العقائد وتفسخت الأخلاق قائلا: "ونغبط الرافعي حقا، وقد استطاع أن ينجو بأفكاره من هذا المأزق الشديد الذي وضع نفسه فيه، فأن يتحدث رجل، على مثل ورعه وورصاته وتقاه، في الحب فيشكولوعته ومرارته، ويخوض في أحواله...وأن يتجرأ على هذا في مجتمع أفلت فيه زمام العواطف، وماعت علاقات الحب، أمر يشق على من لم يخض تجربة أو أكثر من تجارب الحب من ناحية، ثم لم يمتلك ناصية الإبداع فكريا وفنيا خير امتلاك من ناحية ثانية" (ساعي، 1985، صفحة 111)

إن قيمة المرأة والحب من أهم ثيمات أدب الرافعي وبخاصة ما تعلق منه بالناحية الجمالية في المرأة، وعلاقتها بالإنسان العاشق والشاعر، فنظرة

الرافعي إلى المرأة تسير في اتجاهين مختلفين أشار إليهما مصطفى الجوزو بقوله: "للرافعي أسلوبان في تناوله المرأة، أسلوب الشاعر الذي يتكلم عن المرأة الجميلة المعشوقة كلام إعجاب وتقديس في أكثره، وأسلوب الواعظ المتدين الذي يتكلم عن المرأة كعنصر من عناصر المجتمع" (الرافعي، 1985)

1. المرأة مصدر إلهام في أدب الرافعي

لقد كانت المرأة دائماً محط أنظار الشعراء والكتاب لما تبعثه في نفوسهم من معاني الإلهام والشاعرية، وما يثيره جمالها وفتنتها من عواطف تدفع بهم إلى الإبداع والسمو في التعبير، رغم اختلافهم في النظر إليها بين مُقَدِّسٍ وطالب لذة وباحث عن عزاء أو أنس.

ولم تكن نظرة الرافعي للمرأة نظرة عادية تتوقف عند حدود الإعجاب بجمالها، والتغني بفتنتها، وإنما كانت بمثابة باب واسع، دخل منه إلى عالم رحب ألهمه من المعاني الفلسفية والحكمة الشيء الكثير، وكانت ملهماته في ذلك نساء كثيرات تعلق بهن، وبدأ رحلته معهن مع "عصفورة" فتاة كفر الزيات الجميلة، مروراً بشاعرة لبنان التي التقاها أثناء رحلته إلى الشام، وانتهاء بالأديبة الشهيرة "مي زيادة"^(*)، إضافة إلى نساء كثيرات كن مصدر إلهام له في معظم كتاباته.

وكان أول ما يسترعى انتباه الرافعي في المرأة هو جمالها، وعلى هذا الأساس كان يعدها ملهمة. وقد ذهب في وصف هذا الجمال مذاهب شتى امتزج فيها إعجابه ببيانها، وأفرج فيه أخلص مشاعره. وقد تباينت الصور والأشكال التي كان يرسمها للمرأة الجميلة، غير أنه غالباً ما تمتد عينيه - أول الأمر - إلى معالم الأنوثة الأولى فيصف الوجه والخدين والعينين والشففتين والقامة واعتدال الجسم، ثم يخفت هذا الوصف ليدع نفسه على سجيته، فيُلْقِي بخواطره مرسلة، معبرة في صدق عميق عن أثر ذلك الجمال في نفسه، فيمتزج الوصف

*مي زيادة: (1886م - 1914م) ولدت في الناصرة بفلسطين، وهناك تلقت تعليمها الابتدائي أتمت دراستها في لبنان، ثم عادت إلى الناصرة. وفي عام 1908 انتقلت مع والديها إلى مصر. ظهرت أولى بواكيرها الأدبية 1911م وهي مجموعة من الأشعار بالفرنسية، ثم أتقنت العربية فصارت لغتها الكتابية المفضلة، وفتحت صالونها أدبياً في القاهرة كان يقصده كبار رجال الأدب والفكر والفن. أصيبت في أواخر عمرها بصدمات نفسية نتيجة وفاة والديها فانطلقت إلى إحدى مستشفيات لبنان ثم إلى جبل لبنان ثم عادت إلى مصر حيث توفيت.

المادي بالإحساس النفسي، ويخرج لنا صورة فيها من جمال المرأة ومعاني نفسه ما يرسم في أذهاننا لوحة مشرقة الجوانب.

فالوجه - في أحيان كثيرة - يشبه القمر ليلة تمامه، أو القمر طالعا من غيمة أو نور الضحى المتلألئ بالصفاء، أو شعاع الشمس الساحر. يقول الرافعي في مقالة "بنت الباشا": "كانت هذه المرأة وضاحة الوجه، زهراء اللون، كالقمر الطالع، تحسبها لجمالها غدتها الملائكة بنور النهار، وروتها من ضوء الكوكب" (صادق، 1973، صفحة 91) ويقول في مقالة "في اللهب ولا تحترق": "هي حسناء فاتنة، لو سطع نور القمر من شيء في الأرض لسطع من وجهها، وما تراها في يوم إلا ظهرت لك أحسن مما كانت، حتى لتظن أن الشمس تزيد في وجهها في كل نهار شعاعة ساحرة، وأن كل فجر يترك لها في الصبح بريقا ونصرة" (صادق، 1973، صفحة 321)

أما العينان فهما سوداوان ساحرتان، فهما شعاع لا يقاوم، يجذب النفس بقوة للافتتان بهما. يصف ذلك في مقالة "القلب المسكين": "أنظر إلى هاتين العينين... إن في شعاعهما قدرة على وضع النور في القلب السعيد، كما أن في سوادهما القدرة على وضع الظلمة في القلب المهجور" والابتسامة، قبس من نور الفجر المتلألئ، والشفتان وردة حمراء: "تعجز كل حدائق الأرض أن تخرج وردة حمراء تشبهها" (صادق، 1973، صفحة 105)

والمرأة الفاتنة بجسمها الذي ينطق بالسحر والدلال، هي التي يصفها الرافعي في مقالة "الشيطان" بقوله: "كانت امرأة جزلة غضة رابية، يهتز أعلاها وأسفلها وتمشي قصيرة الخطو متناقلة، كالمتضايق من حمل أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل، فبعض مشيها يقظة، وبعضها نوم فاتر تخالطه اليقظة" (صادق، 1973، صفحة 207)

والرافعي حين يسرد هذه المظاهر ويسترسل في الوصف الحسي ويبدع فيه، مسخرا في ذلك طاقاته الخيالية الخصبة، وقدراته البيانية الراقية، لا يُرضي في نفسه إلا نزعتها للاستمتاع الروحي ببدايع صنع الله في المرأة، وميله

الشديد إلى تأمل الحسن، والنهل من منبعه بعيدا عن صاحبه، منفصلا عن معانيها الجسدية. وهو يعبر عن هذه الفكرة بقوله في مقالة "الجمال البائس": "وأنا على كل أحوالي إنما أنظر إلى الجمال كما أستثني العطر يكون متضوعا في الهواء. لا أنا أستطيع أن ألمسه، ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت مني. ثم لا تدفعني إليه إلا فطرة الشعور والإحساس الروحاني دون فطرة الشر والحيوانية، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة، أكبر منها غير أنه هو منها" (صادق، 1973، صفحة 270)

ويؤكد الرافعي هذا الأمر مرات عديدة وفي مقالات كثيرة يكون موضوع الوصف فيها جمال امرأة راقصة أو طائشة أو بغي، غير أنه لا يقتبس من الجسم الخليع والنفس المنحرفة إلا شعاع الحسن الذي أودعه الله فيها، مؤمنا أن الربط بين المعنيين خطأ كبير. لذلك فإنه عندما فتن بجمال إحدى الراقصات في ملهى قال: "إن المصباح في الموضع النجس لا يبعث النور نجسا، وما أشعر إلا أن النور الذي في قلبي قد امتزج بالنور الذي في عينيها" (صادق، 1973، صفحة 109)

ونظرا لما كان يتركه الجمال في نفسه من أثر، فقد عدّ المرأة عاملا مهما، بل وأساسيا في عملية نبوغ الشاعر، وعزا إليها قدرته على التعبير الجميل والإتيان بالمعنى الرقيق، والتفوق في الغزل الصادق. لذلك كان يذهب باحثا عن المرأة الجميلة كلما أحس في قرارة نفسه أنه بحاجة إلى "مقالة من المكحولات" (صادق، 1973، صفحة 271)

ولعل ذلك ما يفسر لنا ما أورده سعيد العريان من أن الرافعي: "رجل كان على دينه وخلقه ومروءته -ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة. فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه..." (سعيد، 1968، صفحة 110). وكان الرافعي يعرف ذلك من نفسه، ولا يرى فيه تعارضا مع رجولته، بل كان يعدّه: "أحد طرفي النبوغ" (صادق، 1973، صفحة 288)

ويبدو أن ضرورة وجود المرأة في حياة الشاعر النابغة أمر قد اقتنع به الرافعي اقتناعاً تاماً، جعله يدرجه في مقالاته النقدية، فيقول في مقالة "كلمات عن حافظ": "إن المرأة للشاعر كحواء لأدم" هي وحدها التي تعطيها عالماً جديداً لم يكن فيه" (صادق، 1973، صفحة 229) وذلك على أساس أن: «النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق» (صادق، 1973، صفحة 263)

وخلو الشعر من معاني الغزل وأوصاف الجمال وآثار الحب، يجعله - كما يقول الرافعي -: "مقبرة للألفاظ والمعاني" (صادق، 1973، صفحة 151) ولهذا السبب حكم على حافظ إبراهيم بأنه اختار الشعر الاجتماعي فغفل عن الجمال والطبيعة وأسباب الرقة. وكان مقصراً في الشعر الإنساني لأنه لم يتعلق في حياته بامرأة تلهمه، وتفعم قلبه بأسرار جمالها. بينما أعطى قصب السبق للشاعر إسماعيل صبري لأنه: "لم يدرس الشعر في الكتب أكثر مما درسه في الوجوه والعيون" (صادق، 1973، صفحة 263) وكان هذا دأبه، لا يرى جميلة إلا أحس في نفسه ينبوعاً شعرياً يتفجر بالمعاني العذبة. وكان وقع الجمال على نفسه يختلف باختلاف المرأة التي تحملها. ويفصل سعيد العريان هذا المعنى في قوله: "وكان يسمى كل جميلة شاعرة، لأنها تمنحه الشعر، و"الشواعر" عنده طبقات على مقدار ما يبعث فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه، ففلانة شاعرة كالمتنبى وهذه كالبحتري وتلك بنت الرومي ورابعة بشار بن برد، وخامسة عبد الله عفيفي أو شاعر الرعاع" (سعيد، 1968، صفحة 98)

وقد عبر الرافعي عن هذا المعنى في لغة شعرية رقيقة في قوله عن إحدى الجميلات: «هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر، تتحرك بدلاً من أن تُقرأ، وتُرى بدلاً من أن تُسمع، قصيدة بلا ألفاظ، ولكن من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره" (صادق، 1973، صفحة 110)

ولم تكن المرأة الجميلة هي النموذج الوحيد الذي استوقف الرافعي فوصفه وأبدع فيه، بل إن مقالاته قد تعرضت لأنواع أخرى من النساء، كان

فمهن المرأة المتعلمة التي قادها علمها إلى الاستمتاع بدينها وتقاليدها أهلها، وسول لها الانطلاق إلى عالم الرذيلة دون تحرُّج أو خشية، كما تحدث عن المرأة الجاهلة، وعدّها . لشدة تمسكها بشرفها : «كالحصن المغلق في قمة الجبل الوعر» (صادق، 1973، صفحة 171) إضافة إلى تميزها بفضيلة العفة والصبر والوفاء والإيثار.

وكان للمرأة الدميعة نصيب من اهتمامه، فرأى في صورتها قبحا جميلا لرجاحة عقلها وحسن تديرها وقيامها بواجباتها الإنسانية في جَلَد ورضا. أما المرأة المتدينة، فقد اكتملت صورتها في بنت الإمام سعيد بن المسيب، وهي المرأة المتفكّهة الخاشعة القائنة التي ترمي بابن الخليفة وأمواله وراء ظهرها، وتقبل على طالب العلم الفقير المعدم، طمعا في ثواب الآخرة وطلبا لراحة النفس في الدنيا.

كما استوقفت الرافعي أيضا المرأة المنحرفة في صورة راقصة أو بغي، وكان يرثي لهذا النوع من النساء، ويرى أن العلاقة التي تربطن بالذئاب البشرية المحيطة بهن هي التي صورها على لسان إحداهن في قوله: "ليسوا علينا إلا قهرا من القهر، ولسنا عليهم إلا سلبا من السلب، مادة مع مادة، وشر على شر، أما الإنسانية منا ومنهم فقد ذهبت أو هي ذاهبة" (صادق، 1973، صفحة 175)

وعلى الرغم من أنه حاول أن يفلسف هذه الحالات جميعا من خلال تحليل وتصوير نفسية المرأة ذاهبا تارة مذهب الأخلاقيين، وتارة أخرى مذهب الشعراء الذين يتألمون لأحزان الغيرويطنون لأفراحهم، إلا أن المرأة الجميلة الفاتنة كان لها نصيب الأسد من اهتمامه. وهكذا، كتب لأدبه - في هذا المجال - أن يلج عالم الرومنسية التي بدأت تجتاح في زمنه الساحة العربية، وأن يترك فيها بصمات مبكرة في الأدب الرومنسي العربي، نظرا لما حظيت به موضوعات المرأة والحب والطبيعة من اهتمام لديه، وهي المحاور الأساسية التي كان لها حظ وافر في الأدب الرومنسي بعامة.

أما الحب، فهو عند الرافعي ضرورة من ضرورات أدبه وفنه، ففي أحضانه يجد السكون وحقيقة الكون، وصدق الإحساس، كما تجد عواطفه منطلقها وميدانها الفسيح لتجوب آفاق الدنيا. وهو أيضا درجة سامية من العواطف الإنسانية المفعمة بآيات الجمال، كما أنه سُلّم الشاعر الرقيق والكاتب المبدع للوصول إلى قمة الأدب الراقي والمشاعر المتعالية على الدنيا والروح الشهوانية، وقد فصل سعيد العريان هذا الأمر قائلا: "إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع، ولكنه عند الرافعي هو حيلة النفس إلى السمو والإشراق والوصول إلى شاطئ المجهول، هونا فذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا" (سعيد، 1968، صفحة 96)

وانطلاقا من ذلك، فإن حياة الرافعي لم تخلُ من الحب منذ أن فتح عينيه على دنيا الأدب وهو في ريعان شبابه، فقد عاش عمرا طويلا: "بين العشرين والسابعة والخمسين، لم يشرق فيه صباح ولم يَجْزْ مساء إلا وللرافعي جديد في الحب بين غضب ورضا، ووصل وهجر... وحب إلى وداع، وحب إلى لقاء... وشاب الرافعي وما شاب قلبه..." (سعيد، 1968، صفحة 94)

أما الحب - كما صوره الرافعي في مقالاته - فهو حبٌ سامٌ، لا يبحث عن لذة جسدية أو نشوة حسية، بقدر ما يسبح في متاهات الألم ودهاليز العذاب، بل يكاد يصل بصاحبه إلى الجنون، لأن ذلك هو أصدق برهان على الحب، وليس دونه ما يدل عليه، وإلا كان زيفا وشهوة عارضة. يوضح ذلك في مقالة "ورقة ورد": "والحب - إن كان حبا - لم يكن إلا عذابا - فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق، ليس حال منه في عذابه، إلا وهي دليل على شيء منها في جبروتها" (صادق، 1973، صفحة 99) ثم يضيف في يقين: "أن الغرام إنما هو جنون شخصية المحب في شخصية محبوبه، فيسقط العالم وأحكامه ومذاهبه بين الشخصيتين، وينتفي الواقع الذي يجري الناس عليه، وتعود الحقائق لا تأتي من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمر على المحبوب لتجئ منه" (صادق، 1973، صفحة 99)

وعلى هذه الصورة العجيبة من ذوبان المحب في شخص محبوبه، وشغفه برؤية العالم وأشياءه من خلاله وحده، كان الإحساس بالحب عنده مرادفا للألم لما ينجم عن هذه العلاقة المثالية من عذاب. والرافعي في كل أحواله، لا يحس بالحب إلا على هذه الصورة، فهو يقول في مقالة "الجمال البائس": "لعمري ما رأيت الجمال مرة إلا كان عندي هو الألم في أجمل صوره وأبدعها، أتراني مخلوقا بجرح في القلب؟" (صادق، 1973، صفحة 268)

وحين يسترسل الرافعي في وصف هذه الآلام، يركب جناح الخيال البعيد، ويذهب في ذلك مذهبا مغرقا في الإحساس بالعذاب، حيث يقول في مقالة "الطائشة": "أنا لا أتألم في هواك بالألم، ولكن بأشياء منك أقلها الألم، ولا أحزن بالحزن ولكن بهموم بعضها الحزن..." (صادق، 1973، صفحة 173) ويقول في مقالة "دموع من رسائل الطائشة": "يخيل إليّ من طغيان آلامي أن كل ذي حزن فعندي أنا تمام حزنه، ويخيل إليّ أنني أفصح من نطق بأه" (صادق، 1973، صفحة 180)

وهذا الحب الحزين المتألم، لا غاية وراءه سوى الاستمتاع بالجمال والاعتراف من منبع الشاعرية في المرأة المحبوبة، هذه المرأة التي هي الطهر مجسدا، والعفة مصورة. فهي: "متسامية في جمالها حتى لا يتكلم جسمها في وساوس النفس كلام اللحم والدم، وكأنه جسم ملائكي ليس له إلا الجلال طوعا أو كرها. جسم كالمعبد يعرف من جاءه أنه جاءه ليبتهل ويخشع" (صادق، 1973، صفحة 101)

وهكذا، يلتقي سمو الرافعي نحو الحب السماوي الطاهر مع ما يوحيه جسم المحبوبة من الارتفاع عن الشهوات الأرضية مما أضفى كثيرا من الانسجام على موضوع حبه. لذلك فهو لا يبدو غريبا عندما يتحدث عن مجلس حب مع حبيبته، ويقول أنه كان يبدو رزينا عاقلا عليه سيماء الاحترام والوقار، غير أن نفسه كانت محتاجة، وتجد لسع الحريق من أثر هذا الحب، وليس ذلك، إلا لأن الجوارح لا دخل لها في هذه المشاعر المتأججة والعواطف المشبوبة، وإنما تجد ميدانها الحقيقي في النفس. يقول الرافعي معبرا عن هذا المعنى في مقالة "ورقة

ورد": "ولما رأيتهما أول مرة ولمسني الحب لمسة ساحر، جلست إليها أتأملها وأحتسي من جمالها ذلك الضياء المسكر الذي تعربد له الروح عريدة كلها وقار ظاهر...فرايتني يومئذ في حالة كغشية الوحي، فوقها الآدمية ساكنة، وتحتها تيار الملائكة يعب ويجرى" (صادق، 1973، صفحة 100)

ومن خلال ذلك كله، ندرك أن أهم ما يميز حب الرافي، أنه حب روحي قائم على العفة والطهارة، وموجه إلى عاطفة أنبل من الميل الجسدي وأسمى من الشهوة المادية. وقد كان الرافي يريد لحبه أن يكون كذلك، إشباعاً لرغبة نفسه الفاضلة في عدم تجاوز حدود الإسلام وتعدى حرمان الدين، وسعياً لتحقيق هدف أخلاقي، وقدوة وسط الشباب الذين كان يموج بهم تيار الانحلال.

هذا الهدف الأخلاقي هو الذي تحدث عنه إلى صديقه أبي رية شارحاً الأسباب التي دعت به إلى تأليف كتاب "أوراق الورد" على ذلك النمط من التأليف، فيقول إن هدفه من ذلك كان: "تطهير فكرة الحب، وتهذيب معانيه في نفوس الشبان والفتيات، والسمو بهذه الفكرة إلى الجهة الشعرية الروحانية لتسموها النفس بدلاً من أن تسقط. وهذا غرض تهذيبي عظيم، لأن ناموس الحب طور من أطوار الشباب، ولا يمكن أن يُقهر أو يُدفع، وإنما الممكن تهذيبه والسمو به" (محمود، 1969، صفحة 226)

وربما استطعنا أن ندرج حب الرافي المفعم بالألم والحزن، وسموه عن الغايات المادية، ودعوته إلى الأخذ بالحب الروحي لتكتسي الحياة قيمة أكبر، ضمن التأثيرات الرومنسية التي صبغت أدبه في هذا الموضوع، غير أننا نؤكد أن هدفه من ذلك لم يكن يأسا مطلقاً أو تمرداً على الواقع أو تخلصاً من قيود العقل كما كان الشأن بالنسبة للرومنسيين الذين تبناوا هذا المذهب فكراً وفناً، وإنما كان ذلك وسيلة عبر بها عن مشاعره، وأدى بها رسالته الفنية والأخلاقية، وله من وراء كل ذلك غاية سامية هي الإبداع في الأدب والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، مع الإشارة إلى أن رائده في كل ذلك هو حسه الإسلامي.

وفصل أحمد بسام ساعي هذا المعنى، ويتحدث عن الفرق الذي يكمن بين رومنسية الرافعي ورومنسية الغربيين، فيؤكد أن تصوير الرافعي للعاشق المثالي الذي يعاني من اليأس الفاتك في الحب، والحدة التي طبعت أفكاره، والمثالية التي غلبت على بعضها الآخر، أن هذه الأحوال كلها: "لم تكن إلا نتيجة للتأثيرات الفنية وليس الفكرية للمذهب الرومنسي الذي كان قد غطى الساحة الأدبية لجيل الرافعي" (ساعي، 1985، صفحة 113)

وهذا التأثير الفني هو الذي أوجد في أدب الرافعي: "مشاعر القلق العارض واليأس المرحلي والحزن الشكلي، والمبالغة الفنية والجموح في الخيال والتوقد في العواطف..." (ساعي، 1985، صفحة 113)، وهي ليست أكثر من أثواب إذا طرحناها توصلنا إلى جوهر أفكار الرافعي.

2. الرافعي وسحر الطبيعة

وبقدر ما استهوى الرافعي جمال المرأة وشغله حبها، فقد فتنه سحر الطبيعة ومهرته مشاهدتها التي كان يراها رائعة على أي حال كانت: في غضبها وهدوئها وفرحها وحزنها. وهذا هو المحور الثاني الذي يدور حوله هذا البحث. فالطبيعة، منذ أقدم العصور، كانت مرتعا خصبا للشعراء، يتغنون في أحضانها بجمال الحياة وينفسون عندها عن مشاعر الحزن والألم، ويبثونها الشكوى، ويدعونها لتشاركهم في المسرات وظلت تمارس تأثيرها السحري على الأدباء على مر الدهور، فلم يستغن عنها أحد وإن اختلفت مواقفهم منها.

فقد كان بعضهم يصورها تصويرا ماديا لا يتجاوز فيه مظاهرها الخارجية، متوقفا عند ذلك، فيكون عمله الأدبي أشبه بآلة تصوير، تسجل دقائق الجمال الطبيعي وترسمه كما رآته العين، فإن أبدع في ذلك وأحسن التصوير، كان أقصى ما يقال عنه، أنه مقلد لليد الإلهية الصانعة. أما البعض الآخر، فقد كان يجد فيها عالما واسعا من المعاني، ويحس بارتباطه الوثيق بأسرارها الخفية، فيخرج وصفه لها مزيجا من جمال حيٍّ ومشاعر إنسانية خالصة.

وكان الأدباء الرومنسيون قد بلغوا درجة كبيرة من الانسجام النفسي مع الطبيعة واعتبروها كائنا حيا يتجاوب معهم ويشاركهم أحاسيسهم. ولم يتعد الرافعي عن هذا التيار كثيرا، مما يجعلنا نعدّ أدبه -في هذا المجال- مرتبطا بالمدرسة الرومنسية ارتباطا متينا عبر عنه في اندماج عواطفه بالطبيعة وإسقاطها عليها، والتعاطف مع مكوناتها، وبثها شكواه وآلامه.

وكانت مقالاته في الطبيعة وصفية: "تعتمد قيمتها الحقيقية على دقة الملاحظة والتعاطف العميق مع الطبيعة الذي لا يحور إلى عاطفية مسرفة، ثم على الوصف الرشيق المعبر الذي ينقل أحاسيس الكاتب وصورة الطبيعة كما تنعكس على مرآة نفسه بصدق وإخلاص" (يوسف، 1997، صفحة 114)

والطبيعة في مجملها عند الرافعي، لا تنفصل عن النفس الإنسانية، بل هي ممتزجة بها امتزاجا يكاد يكون كليا في جميع مظاهرها، لأنها لا تختلف كثيرا عما يخالج هذه النفس من مشاعروما يضطرب في جنباتها من أحاسيس. وليس أدل على ذلك من أن **الطبيعة في فصل الصحو والزهور**: "تصبح كالمعشوق الجميل لا يقدم لعاشقه إلا أسباب حبه" (صادق، 1973، صفحة 36)

ويعبر الرافعي عن قمة هذا الامتزاج بين الطبيعة والنفس في قوله في مقالة "في الربيع الأزرق": "في لحظة من لحظات الجسد الروحانية، حين يفور شعر الجمال في الدم، أطلت النظر إلى وردة في غضبها زاهية عطرة، متأنقة، متأنثة، فكدت أقول لها: "أنت أيها المرأة، أنت يا فلانة" (صادق، 1973، صفحة 49)

وللربيع في نظر الرافعي طعم خاص ونظرة متميزة، فهو يلمح في كل مشهد صورة رائعة لعاطفة نبيلة أو نفس رقيقة. **فالأزهار**: "كأنها ألفاظ حب رقيقة مغشاة باستعارات ومجازات" (صادق، 1973، صفحة 36)، **والنسيم**: "كثوب الحسناء على الحسناء، فيه تعبير من لابسته" (صادق، 1973، صفحة 36)، **وكل زهرة**: "كابتسامة تحتها أسرار من معاني القلب المعقدة" (صادق، 1973، صفحة 36) فالطبيعة عند الكاتب تعيش عرسا متواصل الأفراح يلمس

جميع القلوب بلمسة من السحر فإذا هي تحيا في أحلى أيامها وأسعدّها، ويذهب في وصف ذلك مع خياله الحربعيدا جامحا دون حدود أو قيود، ويرتبط في كل ذلك ارتباطا وثيقا بالطبيعة التي يهيم فيها وتمتزج بها روحه حبا وتقديسا.

والطبيعة . بعد ذلك . مصدر تفاؤل، تبعث شعاع الأمل في النفوس، وتجدد حب الحياة وفرحة الشباب، وتمحو آثار الصراع الدنيوي الشرس، وتمسح بيد حنون على القلوب القاسية فتلين، والأفئدة الحزينة فتستبشر. لذلك فإن الرافعي يدعو المتأمل في جمال الطبيعة إلى أن يقرأ وراء أزهارها ونسيمها وشمسها سطورا من البيان الرائق الذي يطرد عنه شبح القنوط. ويصور ذلك في مقالة "الربيع" قائلا: «فَآنْظُرْ إِلَى ءَأَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (*) وانظر كيف يخلق في الطبيعة هذه المعاني التي تبهج كل حي بالطريقة التي يفهمها كل حي، وانظر كيف يجعل في الأرض معنى السرور وفي الجو معنى السعادة...أنظر، أنظر، أليس كل ذلك ردا على اليأس بكلمة: لا...؟" (صادق، 1973، صفحة 36)

وهكذا، فالرافعي يدعو الإنسان: "إلى أن ينظر إلى الطبيعة بعين العاشق المبتسم المطمئن نظرة مباشرة خالية من الهموم والأوهام" (صادق، حديث القمر، 1982، صفحة 157) وهذا دأبه في معظم كتاباته التي كانت على جانب كبير من التفاؤل والأمل، لا يخضع لظلمات اليأس، ولا تشكو نفسه قسوة القنوط من الرحمة كما يؤكد أحمد بسام ساعي الذي يقول أن عهده بالرافعي أنه: "يبحث دائما في الفضاء المظلم عن كوة أمل ينفذ منها مهما ادلهم سواد هذا الفضاء، والرافعي في كل ما يكتب يُغَلِّبُ الأمل على اليأس والتفاؤل على التشاؤم..." (ساعي، 1985، صفحة 113)

ولعل هذه النزعة إلى التحرر من قيود الشعور بالإحباط والفشل، والابتعاد من الإحساس بعدم جدوى الحياة وتفاهتها، يعود إلى عمق تأثير النشأة الدينية التي درج عليها، وإيمانه الذي لا يتزعزع بعدالة قضاء الله ورحمته بعباده. فكان كما يقول سعيد العريان: «دائما باسم منبسط الوجه، يقنع نفسه في كل

(*) سورة الروم، الآية 50

يوم بأنه في أسعد أيامه. فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يشعر بها نفسه، ومن كل فادحة تنزل به خيرا يترقبه ويهيئ له..." (سعيد، 1968، صفحة 234)، وكان ذلك نابعا من فلسفة الرضا بما هو كائن، والتي كانت مبدؤه في الحياة.

وإذا كان الرافعي يحتفل بالربيع ويرى فيه صورة الأمل المشرق، وتفتح النفس على المعاني الجميلة المطربة، فإنه بذلك يخالف المنحى الذي نحاه الرومنسيون الغربيون والذين كانوا يفضلون فصل الخريف لما يسوده من كآبة لقرب حلول الضباب والجليد وتوقف نبض الحياة. ويعود ذلك، كما يقول محمد غنيمي هلال إلى أن هذه المناظر: "توحي بالذبول والتحلل والفناء وتتجاوب مشاعر الطبيعة الحزينة آنذاك مع مشاعر الرومانتيكيين" (غنيمي، 1973، صفحة 173) كما يخالف التيار الذي تبناه شعراء الرومنسية العرب الذين كان الخريف عندهم: "هو الأعماق تأثرا في نفوسهم من معانقتهم فيه لحس الزوال والبراح والندم، ففي الخريف تكمن تجربة رومنسية صافية، وهم يؤثرون اللون الأصفر لأنه لون الكآبة والهزيمة" (إيليا، 1979، صفحة 33) كما يذهب إلى ذلك إيليا الحاوي.

وقد سادت هذه النزعة التفاؤلية جميع مظاهر الطبيعة التي وصفها الرافعي في مقالاته، حيث كانت توحي له بمثل ما أوحى إليه الربيع، من أن الطبيعة في حفل بهيج مدعو إليه جميع الناس للاستمتاع به. **فالقمر**: "زاه رفاف من الحسن، كأنه اغتسل وخرج من البحر" (صادق، وحي القلم، 1973، صفحة 44) وللرافعي تاريخ حافل بالمشاعر مع القمر، وفيه أنشأ كتاب "حديث القمر" الذي يقول في بدايته: "هذه مقالة صرفت فيها وجه الحديث إلى القمر، وبعثت إلى الكون في أشعة الفجر كلماتها. ولقد كان القمر بضياؤه كأنه ينبوع يتفجر في نفسي، فكنت أشعر بمعاني هذا الحديث، كما يشعر الظمان اللهب قد بلغ الري وتندى الماء كبد..." (صادق، حديث القمر، 1982، صفحة 5)

أما البحر فهو "ربيع مائي أزرق"، إذا ارتفعت درجة الحرارة في الصيف انتقلت إلى أيامه أرواح الحدايق، وأوحى لونه إلى النفوس ما يوحيه لون الربيع الأخضر، غير أنه أرق وألطف. وهو يرتفع بالإنسان إلى درجة يحس معها بخفة عجيبة تخلصه من كل أثقاله المادية. يقول الرافعي في مقالة "أيها البحر": "وفي الربيع المائي يجلس المرء، وكأنه جالس في سحابة لا في الأرض، ويشعر كأنه لا بس ثيابا من الظل لا من القماش، ويجد الهواء قد تنزه عن أن يكون هواء التراب (صادق، وحى القلم، 1973، صفحة 43)

ويحس الرافعي هذا الجمال الطبيعي الرائع في جميع مشاهد الطبيعة، حتى تلك التي تتكرر أمام أنظارنا كل يوم دون أن نلتفت إليها. فهو يعرف: "لنور النهار عذوبة كعذوبة الماء على الظمأ، ويظهر الليل كأنه معرض جواهر أقيم للحوار العين في السماوات، ويبدو الفجر بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنة سابحة في الهواء" (صادق، وحى القلم، 1973، صفحة 47)

والطبيعة، عند الرافعي، لا تهب جمالها ولا تنثر دررها إلا لمن جاءها، محبا، باحثا عن الراحة النفسية في أحضانها، متطهرا من أدران النفس المادية وشهواتها، أي أنها تريد من الإنسان المتمتع بسحرها أن يكون طفلا في براءته ومرحه وصفاء قلبه، وإلا لوث الجمال الساحر بهوموم المادية وأفكاره الفلسفية التي تفسد رونق الحياة. يقول الرافعي: "إننا لن ندرك روعة الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفس قريبة من طفولتها ومرح الطفولة ولعبها وهذيانها" (صادق، وحى القلم، 1973، صفحة 47)

وهو يؤكد هذا المعنى في أسف، لأن البحث في حقائق الحياة الذي هو دأب الإنسان، قد أفسدها، وذلك حين يقول: "إن دقة الفهم للحياة تفسدها على صاحبها، كدقة الفهم للحب، وإن العقل الصغير في فهمه للحب والحياة، هو العقل الكامل في التناذد بهما، وأسفاه هذه هي الحقيقة" (صادق، وحى القلم، 1973، صفحة 49) لذلك فإن الإنسان، إذا لم تنجح الطبيعة في أن تخلصه من المعاني المعقدة أو الأثمة التي تعتلج في صدره، فلن تستطيع أن تجعله يحس بجمالها ويتذوقه. يقول الرافعي موضحا ذلك: "والطبيعة التي لا تفلح في جعلك

معها طفلا تكون جديدا على نفسك، لن تفلح في جعلك مسرورا بها لتكون هي جديدة عليك" (صادق، وحي القلم، 1973، صفحة 41)

والرافعي، بهذه النظرات الفلسفية، يؤمن بأن للطبيعة، بجمالها الإلهي، قدرة كبيرة في التأثير في النفوس وتخليصها من أدرانها ووساوسها وهمومها، والارتداد بالإنسان إلى حياة الفطرة الصافية حيث يتمكن من رؤية العالم في شكله الحقيقي القائم على البراءة والطهر، وفي ذلك يقول: "الحياة في المدينة كشرب الماء في كوب من الخزف، والحياة في الطبيعة كشرب الماء في كوب من البلور الساطع، ذاك يحتوي الماء وهذا يحتويه ويبدى جماله للعين (صادق، وحي القلم، 1973، صفحة 49)

وكما كان جمال المرأة منبعاً للإلهام والشاعرية عند الرافعي، كذلك كانت الطبيعة بروعتها، معرضاً يجلي للشاعر أسرار الكون، ويدله على مواطن الجمال ليتفجر ينبوع الشعر في نفسه، ومن هذا جاء هذا التشابه بينهما، والذي يعبر عنه الرافعي بقوله: "وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر كوقوف المرأة الحسنة أمام المصور" (صادق، وحي القلم، 1973، صفحة 36) ومن طبيعة الشاعر الذي ينفعل برؤية الجمال أن يهتز ويضطرب لرؤية الطبيعة الفاتنة، فينبض عرق الحياة والنور في قلبه، لأن الشاعر- كما يقول الرافعي -: "نبي هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير" (صادق، وحي القلم، 1973، صفحة 36)

ونعود إلى تقييم النزعة الرومنسية التي سادت أحاديث الرافعي عن المرأة والحب والطبيعة، لنسجل النتيجة التي أشار إليها بعض الباحثين، حين قال أن رومنسية الرافعي: "ليست رومنسية جوهريّة أساسية بل عرضية طارئة تلون أفكاره وفنه تلويها سطحيًا، من غير أن تتحكم بالأسس الفكرية لديه، فيمكن أن نقول مثلاً: إن الحديث عن الحب والتوحد بالطبيعة ومحاولة ترويض الشباب وإخضاعهم للحب الروحي بدلا من الجسدي، لم تكن من

الجدور الرومنسية الفكرية، وإنما كانت بمثابة متكآت فنية...ينتجها للوصول إلى غايات أبعد منها" (ساعي، 1985)

3. خاتمة

وفي نهاية هذه المقاربة يمكننا أن نشير إلى ملاحظة مهمة جدا وهي امتزاج ثيمة المرأة وثيمة الطبيعة بشكل كبير جدا في كتابات الرافعي، كما أن ما كتبه في هذا المجال يعدّ شكلا جديدا من أشكال النثر الشعري في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الأدب العربي الحديث كما يؤكد ذلك عبد العزيز المقالح: "إن ما كتبه الرافعي من أحاديث الحب والجمال...صورة من تجربة إنسانية عاناها وعبر عنها واختار لها هذا الشكل الفني الذي يعتبر من بدايات النثر الشعري في الأدب العربي الحديث" (العزیز، 1984، صفحة 142)

وقد نجح الرافعي في نظرنا إلى حد كبير في فلسفة موضوع المرأة والطبيعة اللذين غاص في أعماقهما واستخرج المعاني والأبعاد والدلالات، سواء في المقالات التي تضمنها كتابه (وحي القلم) أم في كتبه ذات الطابع الفلسفي من مثل (حديث القمر) و(أوراق الورد) و(السحاب الأحمر) و(رسائل الأحران في فلسفة الجمال والحب) و(المساكين) وغيرها وهو ما أشار إليه نجيب الكيلاني في قوله: "أظن أن الرافعي أول أديب استطاع أن يفلسف الحب وما خالطه من مشاعر، ويغوص في أعماق النفس ويحلل فورانها...كان واحدا بلا شك بين رواد النفس الإنسانية في أدبنا العربي وما أقلهم" (نجيب، 1983، صفحة 103)

4. قائمة المصادر والمراجع

1.5. المصادر

- الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، ثلاثة أجزاء، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه محمد سعيد العريان، بيروت: دار الكتاب العربي، د، ت. 1973م
- الرافعي، مصطفى صادق، حديث القمر، ط الثامنة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1982م.
- العريان، محمد سعيد، حياة الرافعي، ط الثالثة، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1968م.
- حياة الرافعي، محمد سعيد العريان

2.5. المراجع

- الجوزو، م مصطفى، مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السورالية، ط الأولى، بيروت: دار الأندلس، 1985م.
- أبورية، محمود، من رسائل الرافعي، ط الثانية، القاهرة: دار المعارف، 1969م.
- نجم، محمد يوسف، فن المقالة، بيروت: دار الثقافة، د، ت.
- هلال، محمد غني، الرومانتيكية، بيروت: دار العودة، 1973م.

- الحاوي، إيليا، في النقد الأدب، 5 أجزاء، ط الرابعة، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1979م.
- المقالح، عبد العزيز، عمالقة عند مطلع القرن، ط الأولى، بيروت: دار الآداب، 1984م.
- الكيلاني، نجيب، الإسلامية والمذاهب الأدبية، ط الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م.
- مجلة المسلم المعاصر، ع 42، س 1985م